« الحاج » محمد باع حجته ...

قصة بقلم سميرة عزام

اليها ، تلك العربية التي سالتها في بيت صفافا من وراء الشريط : « كيف تشعرون في سجنكم » فقالت : « بل قولي كيف تشعرون انتم في (حريتكم) !.. » ، فالقمتني حجرا بهذا السؤال الجواب .

س.

*

كأن الامر كله لم يكن بحاجة الى اكثر من نظرة مستشفة تحمّل الاشياء اكثر مما تحمل ، تربط بين منظر « الحاج » جالسا على كرسي واطئة مرسلا نظرة بعيدة ساهمة وبين تلة من الزجاجات الفارغة أكل الغبار ألوانها وتكومت في غير ترتيب في الباحة الخلفية للبيت الحجري الابيض ، ليهز سلمان ابو عاكف راسه ويقول من وراء كوفية تغطي دائما قسما من وجهه : « الحاج محمد باع حجته » .

عبارة تلقفتها القرية تفسيرا لمأساة الصمت ، وقبلتها دون كبير نقاش ، اذ لا بد لفجيعة « الحاج » ان تختلف في اثبات نفسها عن فواجع من قتل او اصيب او أوغل شرقا من الاخرين . وكان لا بد لحزن الحاج ان يتفجر بأخطر من هذا الصمت الذي تلبسه ، واخطر من هذه النظرة المفرغة المعلقة بأفق محمل دائما بالمفاجآت ، تصدر عن عينين تبكيان بلا دموع جثة « لفارس » ، منقوشة بعشر رصاصات ، مطمورة تحت شاهدة لم تعد قادرة على ابتعاث ألم أحد ، فقد أدمن الناس الحزن ، وبدا الموت نهاية منطقية مقبولة ومغبوطة لكل الاعمار ، فالموتى قد ماتوا مرة واحدة ، أكيدة ونهائية ، وهم يعرفون لماذا ماتوا ، وما عاشوا ليتساءلوا لماذا يعيشون فتختنق اصواتهم بلغط التراكتورات ، تشق صدر الارض المنهوبة فيماوراء الشريط . كان حزنهم غريقا بنور الشمس ، وكان عليهم ان يحزنوا وهم مفتحو العيون .

« الحاج محمد باع حجته » .

فكرة سنحت لصديقه سلمان ابو عاكف كما تسنح الخاطرة ، وكان قبلا اذا خطر له شيء حمله للديوان ، وتطارحه والرفاق ، واليوم لم يعد هناك ديوان فقد اكله الشريط ايضا ، وتحول الى مركز شرطة يهودي . وانما كان الحاج محمد جالسا مثلما يجلس كل يوم ، وخلفه في الباحة تكومت تلة الزجاجات قريبا من الجرن الذي غطاه الغبار ، والخلقين الذي اسود واخضر . زجاجات جنّد « الحاج » لجمعها اربعة صبيان كان يدفع لهم مليما واثنين عن الزجاجة ، وما يفعل الحاج بالزجاجات ؟ الامر لا يحتاج لاكثر من ذكي كسلمان ابو عاكف . لقد بدأ يجمعها يوم انتزع منه ثلاثة رجال وعدا بأن يجمع العنب من بقايا كرومه التي خلاها له الشريط فلا تأكله الزنابير ، او تفرطه ريح ثاني التشرينين ، لقد استحلفوه بتربة فارس ان يفعل شيئا ، وما تركوه قبل ان يعد وعده الذي لا ينسى ، لانه واحد من كلمات قليلة تفوه بها الحاج محمد طوال شهور .

« الحاج محمد باع حجته » ، الان عرفت يا سلمان ابو عاكف سر الزجاجات ، فشد كوفيتك جيدا وامض الى قومك بما يثير مستنقعات حزنهم ، باع حجته ، بل حجاته السبع واحدة بعد واحدة . اربع منها حجّها وحيدا ، والخامسة مع أم فارس ، والسادسة والسابعة اصطحب فيها فقيرين فوهب الواحدة لروح ابيه والاخرى لروح أمه . سبع حجات ، بل سبعة أعراس ، ان كنت تذكر يا حاج ، قامت فيها القرية وقعدت ، ومدت لك عشرات من حبال الزينة ، وساقت عشرات الخراف تمشي بين قدميك ملوية الاعناق قبل ان تعتلي تلال الارز على السماط المبسوط لكل رائح غاد .

***

حين عاد للقرية كان الشريط قد اقيم ، وقد اكلت لجنة الهدنة من ارضه فلم تبق له من المائة دونم في الكرم الشرقي اكثر من عشرين ، ومن المائتي دونم من مدرجات العنب على السفوح اكثر من اربعين ، اما كرم « الزيني » فقد أكله الشريط كله . وكان في نيته ألا يعود ، فما اكثر الطيور المهاجرة التي خذلها الجناح فرخمت حيث وصلت . ولكن جسد فارس المطرز بعشر رصاصات ظل يناديه ، كان لا بد له من شاهدة ، وقد خاف اكثر من أي شيء آخر ان يأكله شريط الهدنة . علامة وضعها قبل ان يرحل ، أربعة حجار بيض تحد مترين من الارض لا تبعد عن المتراس باكثر من ثلاثين خطوة . هكذا شاء رفاق فارس الا يدفن في المقبرة مع من يموتون على فرشهم ، وانما قريبا من المتراس حيث كان يتصيد يهود « المستعمرات » برشاشه كالعصافير . واول ما فعلته لجنة الهدنة ان أزالت أكياس الرمل ، ودحرجت العلامات التي حد بها قبر فارس ولكنه يستطيع اذا ما دقق ان يعرف بالشعرة اين يرقد فارس . وقد صبر قبل ان يرفع الشاهدة ليرى الى اين يمكن ان تبلغ مطامع الشريط ، اذ انتهى كل شيء ، وجرّحت كرومه بكل هذه الاسلاك ، رفع الشاهدة وقال في نقشها كل ما عنده ثم صمت ، وجلس على كرسيه القصيرة تلك، عيناه مشدودتان الى افق

يحبل دائما بالمفاجآت ، وليست في يده مسبحة !!

***

« كيف كان الموسم يا حاج ؟ »

ويقبّل الحاج محمد يده ، ظاهرا وباطنا ، ـ عادة تحدرت اليه من ابيه ـ كلما سئل عن رزق او نعمة .

« يدك مسلوخة يا حاج »

« أجل حفها المشلي ، وتحريك العصير » .

وليس المشلي وحده هو الذي حفها فالحاج ـ رغم العمال الذين يستأجرهم لتشذيب الانصاب وتسميد الارض وجمع العناقيد من كرومه الثلاثة ومن كل ما يجاور قريته من كروم ـ لم يكن مترفعا عن خدمة الارض ، يعب رائحة طينها برئتين وسيعتين ، ويرفض ان يتذكر انه وجيه القرية قبل ان ينحدر القرص غربا . وفي الليل يجلس في ديوانه يوزع قهوته ويستمع لكل الذين يعمر بهم الديوان ، فاذا كفت مسبحته عن الطقطقة فمعنى ذلك ان السهرة قد انتهت ، وانه متعب وناعس ، ومشتاق الى فراشه المنصوب في العلّية يستلقي عليه ويغفو على حفيف الدوالي تحركها النسائم الصيفية .

« بلغ المنتوج الخمسمائة تنكة ؟ »

ولا يكذب ، الا انه لا يقر بالرقم تماما (وهذا تعلمه من ابيه ايضا . عين بني آدم سخنة) ويفتش عن جواب يروغ به من ذكر الرقم .

ولكنه يعرف ان التنكات الخمسمائة من دبس العنب ليست كثيرة لو كانت المعصرة اكبر و « الخلاقين » اكثر . وقد بدأ يعتقد ان فارس لم يكن يتفلسف وهو يستعرض الاراء التي عبأ بها رأسه حين كان يدرس في القدس اذ يقول : « لا يمكن يا أبي ان نظل لثلاثة اجيال نصنع دبسنا هكذا . لقد تطور العالم .. وغدت فأسك هذه أضحوكة امام تراكتورات يهود المستعمرات .. يجب ان يكون لنا معمل حديث » .

ويهز رأسه . انه امام فارس قوي ضعيف في آن واحد ، ولكنه يطلب اليه الكثير ، وسيضيع ان هو تخلى عن الجرن والخلقين والمشلي ولن يشعر بالعز مثلما يشعر الساعة وهو يستعرض تنكاته ، يتأكد من لحامها ويلصق عليها بيده (الماركة) الدبس المفتخر . انتاج معامل الحاج محمد عطيوي . وتحتها بخط أكبر « مأكول الهنا » .

« معامل .. جرنك هذا معمل ؟ كلمة اضحك بها على نفسك يا أبي » .

« لا تكفر بالنعمة يا فارس . كل ما عندنا من خير هذا الجرن » .

« أنت حر . ولكن دعني أفتش لي عن عمل » .

وكان موشكا ان يقتنع . بل هو مقتنع تماما .. درس المكان الذي سيبني المعمل فيه .. ولن يكلفه الامر اكثر من الامتناع عن حج جديد وشراء نصف دزينة مباريم لام فارس وبعض الحلي لبناته .

لعيني فارس ، وحيده بين البنات الثلاث ، يفعل كل شيء . يرضى حتى ان يزول اسمه عن (الماركة) وان يجدد فيصنع الدبس قوالب جامدة يغلفها بالورق المذهب مثلما يفعل هؤلاء اليهود في مستعمرتهم التي (دقوها) في السهل غير البعيد ...

***

في ذلك الخريف لم يكن الدبس مدكوكا في التنك ، أو ملفوفا بالورق المذهب في بعض همومه . فقد غامت الاشياء في موجة الغضب التي اكتسحت البلاد ، والمبلغ الذي دفعه للمصرف كتأمين لحساب مصنع المكائن قد عاد وسحبه . كان لا بد لفارس ، واخوان فارس ، من رشاشات وذخيرة ، ومتاريس تنصب في وجه المستعمرات التي نبتت المدافع كالفطر على حدودها ، وصار «الديوان» رئاسة اركان يلتقي بها الحرس الوطني كل ليلة ، يتوزعون فيها السلاح والمهمات . وفي ذلك الخريف ، وما أعقبه من شتاء ، كانت مسبحة الحاج عصبية مثلما لم تكن يوما . وكان عليه ان يخالفها فيبدو واثقا وهو يتفقد الشبان في الهزيع الثالث من الليل ، وقد تجمدت أصابعهم على حديد الزناد وراء المتاريس . ولاول مرة نسي المعصرة والخلقين ، وما جمع التنكات ولا أشرف على غسلها ، كان يسافر مرة ومرتين في الاسبوع يفاوض لجان المدن ليحصل على مزيد من الذخائر ، وحين استنفد واللجان كل الوسائل بدت له المتاريس اكواما من القطن الفارغ ، والرجال فزاعات طيور امام المصفحات التي تنسل ليلا لتضرب وتهرب . ويا لليلة التي جن فيها فارس فتخطى المتاريس وألقم نفسه لبقعة ضوء مسلطة من كشاف فاجر ، وكالمجنون راح يرش المصفحة .. وقد تأكد له انها انكفأت ، ولكن بعد أن طرزت صدره بعشر رصاصات .

***

وقفت السيارة ونزل ، وأطل على القرية من بعيد .. كانت الشمس قد بدأت تهبط بشيء من التثاقل ، وبدت له البيوت البيضاء شبه فارغة تحت وطأة السكون الذي أرخى ظله على الاشياء فتركها في حالة اعياء يائس . وقبل ان يمد يده فيزيل العوارض الخشبية التي ثبت بها الباب خلال غيبته ويسحب مفتاحه تقدم ووقف قريبا من السلسلة الحجرية فبرز له الشريط الذي أكل نصف اراضي القرية وبعض بيوتها وسلبها امتدادها الطبيعي الى السهول المرمية غربا ، المخددة بأشكال تفرضها طبيعة المزروعات ونوعها .. اذن هذا ما ابقى الشريط للقرية ، وما ترك له من كروم .. وكانت بقايا الانصاب مثقلة باحمالها وقد التوت أعناق العناقيد المعسلة الملوحة باكثر من لون اصفر ، ومن وراء الشريط كانت الانصاب عريانة ، لقد استعجلوا جناها وغيبوه ببطن سياراتهم التي تسع كل باطل .

واستدار قبل أن يلمحه صغير رابض على حجر قريب فيلحظ انه يبكي . وامتص بطرف الكوفية دموعه ، ومضى ليتدبر من يرفع الالواح الرخامية والشاهدتين ، وكان قد أوصى عليها وبعث بها ليكون لفارس ما يذكر به

حين تتذكر القرية انها دفعت ثمن هزيمتها بطولات ! وحين انتهى من ذلك بعد ايام ، وتحلق حوله الرجال يحكون كيف قهرتهم الهدنة ودقت في عيونهم شريطها الشائك لم يفعل اكثر من ان هز برأسه وعيناه عالقتان بالافق. ولعله رأى ، او لم ير ، كيف تهاوت الدوالي مثقلة بعناقيد تدلت اعنابها كأثداء مفلعة لم تتخفف من بعض ما بها لان يدا لم تمتد اليها . كانت القرية تنتظر عودته ليلوك مع اخوانه يأسه، ولكن هؤلاء لم يفهموا — وقد انقضت على وصوله وفراغه من بناء القبر ايام — لماذا لم يحرك ساكنا ، ولماذا يترك ما بقي له للَيباس ، ولماذا لا يرد ، حتى بالرفض ، حين يرجونه ان يفعل شيئا ، لقد فجعوا مثله ، ولكنهم ما داموا أحياء يجب ألا يموتوا واقفين .. هوذا السحاب يتكىء على كتف القرية منتظرا هبة ريح تحركه فيسح على الكروم مطرا يجور اول ما يجور على الدوالي فيتركها عروقا سوداء ، يقسمون انه ما تذوق حبة من اعنابه ولا ترك غيره يذوق ، وبعضهم يقسم انه شاهد « الحاج » ينتزع عروقا من الدالية يلقم بها نار مدفأته شتاء ، شيء لا يفعله مزارع يعرف ان التجدد هو أعجوبة الحياة . وقد تجددت العروق بانحسار الغيوم وتململت عساليجها الخضراء ، وبدت الاوراق حين دب الدفء في الارض أعلاما صغيرة منشورة لا تجافي طبائعها ، وقد بدا أن شيئا من الانفعال قد لاح في العينين المصمتتين فتجرأ الرفاق على ان يكونوا أعلى صوتا فينتزعوا منه هزتي رأس تكفيان من الحاج لتكونا وعدا بأن يفعل شيئا في هذا الموسم . ولقد شعروا بأنهم لن يُخذلوا حين اخذوا يبصرون به في الصباح يتلقف الشمس بوجه مغسول بندى الاوراق ثم يمضي ليرفع بعض العروق الهابطة على عصي يدقها في الارض ، اذن فقد حماه ايمانه ، وحركت الارض شهوة الفلاح العتيق فيه ، ولكنهم ، وقد فهموا هذا كله ، لا يفهمون لاي شأن يجمع الحاج هذه الزجاجات ، بل ويدفع لمن يحملها اليه من صبية القرية مليما ومليمين للواحدة ...

أصحيح انه .. كما يقول سلمان ابو عاكف .. اصحيح انه ؟..

أيكون سلمان أذكاهم وأسرعهم الى سبر غور هذا اللغز الذي كان اسمه الى ما قبل عام وبعض العام الحاج محمد عطيوي ، هكذا ببساطة ووضوح ، وجيه القرية ، سيد رجالها المبسوط النفس والكف ، عقلها وقلبها .

باع حجته ؟

تاجر الدبس أبا عن جد . المبرأ المنزه ، الصائم ، المصلي ، مشتري اخرته بسبع حجات ، يفعلها ؟

وما يصنع بالزجاجات ؟ من يدحض شكوكهم ويريح قلوبهم المثقلة باكثر من حزن .. هذه زجاجاته ، لا يعبأ حتى بأن يخفيها ، تكبر وتتزايد وتبدو لمن يطل من وراء البيت الى الباحة الخلفية .

باعها ، حجته ، ليشتري بالقروش ، وهي عزيزة في هذه الايام ، زجاجات لا يدري أحد ما يصنع بها الا ان يكون ، أستغفر الله ، قد انتوى ان يستقطر ..؟

ولكن سلمان ابو عاكف وغيره لا يجرؤون ان يقولوها، فما ينسون ليلة طرد من مجلسه عليان سواق الباص حين بلغه ان بعضهم رآه في خمارة في القدس يحسو كأسا من العرق مع دلالي السيارات ..

حزورة فتات رؤوس أهل القرية صيفا وخريفا ، وتأكدت حين جمع أعنابه الى اخر عنقود ، ما أهدى منها سلة ، واختزنها في بيته ، وترك الجرن والمعصرة على حالهما مطمورين بأتربة عامين .

باع حجته ؟

وماذا ينتظرون بعد ليقولوها بصوت مسموع ؟.. ماذا ينتظرون لتصبح أهزوجة للصغار ، حتى هؤلاء الذين أفادوا من قروشه ، ينقسمون فريقين يردد الواحد « الحاج محمد ... » فيرد الاخر « ... باع حجته » ؟!

ما أهون ما صرت اليه يا حاج .. وأنت لا تسمع ولا ترى لانك مذ جمعت « الموسم » قد أغلقت بابك دون العيون ، وأحكمت الرتاج .. شهران لا يرونه الا حين يلمحونه ينفذ خطفا الى البقال ليبتاع حاجات قليلة ، ثم يعود خطفا مثلما جاء ...

شهران . تنحى فصل لاخر ، وابيضت الارض ، ودق الشتاء بريحه أبوابهم ولكنهم لا يفتحون .

ومرة فتحوها ..

ذات صباح انطلقت قافلة من صبية أربعة ، نفس الصبية الذين جمعوا للحاج زجاجاته ، تدق كل باب .. لا تغفل واحدا .. وتدفع لمن يلوح على العتبات بزجاجتين أو ثلاث .

هدية من « الحاج » لهم .. ملَيئة طافحة .. تماما مثلما قدروا .. مع فرق بسيط ..

كانت مليئة بالخل !

وفي هذه المرة لم يعد ثمة لغز .

ولم يعودوا بحاجة الى ذكي كسلمان ابو عاكف .. ليفهموا !!

سميرة عزام

فندق كلاريدج

شارع سليمان بالقاهرة

موقع ممتاز واسعار معتدلة

بادارة : حلمي المباشر